منهم يناكف[1] الآخر ويضايقه ، ويعلن ضيقه منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ[2] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكأن كلاً منهم يُعذّب الآخر من قبل أنْ يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك نجدهم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

ويقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المُذْنبين ؛ فيقول :

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ[3] وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : نكف : « في نوادر الأعراب : تناكف الرجلان الكلام إذا تعاوراه » أي : رد هذا على هذا وتبادلا التقاذف بالكلام .

(٢) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

(٣) القطران : مادة سوداء سائلة لزجة ، تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف ، وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس ، والحديد من الصدأ . [المعجم الوجيز ـ مادة : قطر] .

و « السرابيل » جمع « سرْبال » وهو ما يلى الجسد ، وهو ما نسميه فى عصرنا « قميص » . وإذا كان السِّرْبال من قطران ؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال ؛ وتلك صفات القطران ، وهو شىء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذِّهن من التى يراها العربى فى بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان إذا ما تعرّض لأمر يصيبه بالعطب ، فأوَّل ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شىء فى الإنسان ، فما بالنا حين تغشى وجوه الكفرةِ النارُ ؟ إن مجرد تخيُّل ذلك أمر مؤلم .

وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..(٢٤) ﴾ [الزمر]

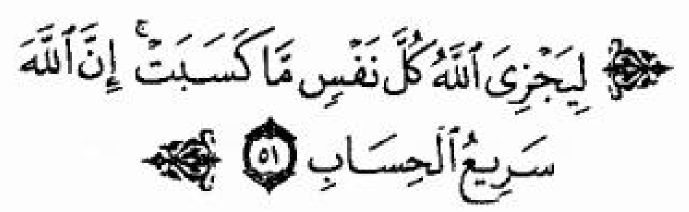
وكأن الواحد منهم من فَرْط شدة العذاب يحاول أن يدفَع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيسَ شتَّى لهذا العذاب ؛ وهو مُؤلِم أشدّ الألم .

ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. (٤٨) ﴾ [القمر]

وهكذا نجد أن الوجه قد جاء فى أكثر من صورة ؛ من صور هذا العذاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



والجزاء أمر طبيعى فى الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله ، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يَضَعْ الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب ؛ لَنَالَ كل مُفسِد بُغْيته من فساده ؛ ولأحسَّ أهل القيم أنهم قد خُدِعُوا فى هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً ؛ فلا ظُلْم فيه إذن ؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال :

﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ١٧ ﴾ [غافر]

ولا يجازى الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة .

وقوله سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ .. (٥١) ﴾ [إبراهيم]

يعنى أن المؤمن أو الكافر سَيلْقى جزاء ما فعل ؛ إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب ـ كما نعلم ـ هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شىء فى الدنيا ؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

ومَنْ كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقَال « كسب السيئة » ولا يقال « اكتسبها » ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية ؛ ويفرح بارتكابها ، ولابُدَّ إذن من الجزاء ؛ والجزاء يحتاج حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

وقد يقول المؤمن : إنِّى أُصدِّق ربى ، ولن يظلم ربِّى أحداً . ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارعة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ [القارعة]

ونجد القسمة العقلية فى الميزان واضحة فهى مرة « ثَقُلَت »

---

(١) أى : أنه ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقال قتادة : يهوى فى النار على رأسه . [تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤] .

ومرة « خَفَّت » . أما مَنْ تساوت كفَّتا ميزانه ؛ ففَسرت حالته سورة الأعراف التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ(١) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ(٢) .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْس بما كسبتْ ؛ فقد يظنُّ البعض أن ذلك سيستغرق وقتاً ؛ ولذلك يتابع سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾ [إبراهيم]

ليبين لنا أنه سبحانه سيُحاسب كل الخَلْق من لَدُن آدم إلى أنْ تقومَ الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام ـ علياً ـ كرَّم الله وجهه ـ : كيف سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة ؟ أجاب الإجابة الدَّالة الشافية ، وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٢)﴾

---

(١) أصحاب الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٢١٦] .

(٢) السُّومة : بالضم العلامة . قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . [تفسير ابن كثير ٢/٢١٨] .

وهذه الآية هي مِسْك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركَّزَتْ الدعوة ؛ بلاغاً صدر عن الله ليبلغه لرسوله الذي أُيِّد بالمعجزة ؛ ليحملَ منهج الحياة للإنسان الخليفة في الأرض .

وإذا ما صدرتْ قوانينُ حركة الحياة للإنسان الخليفة في الأرض المخلوق لله ، وجب ألاَّ يتزيَّد عليها أحدٌ بإكمال ولا بإتمام ؛ لأن الذي خلق هو الذي شرَّع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذِكْر من بَالِ كل إنسان مُكلَّف .

وحين تقرأ هذا القَوْل الحكيم :

﴿ هَٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شيء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

قد أعطانا ما يعطيه النص القانوني الحديث ، ذلك أن النصَّ القانوني الحديث يوضح أنه لا عقوبةَ إلا بنصٍّ يُجرِّم الفعل ، ولابُدَّ من إعلان النصِّ لكافَّة الناس ؛ ولذلك تُنشَر القوانين في الجريدة الرسمية للدولة ؛ كي لا يقولَ أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فمهمة الرسول - إذنْ - هى البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذى يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

ويقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول[1] :

﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف]

ويقول أيضاً :

﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود]

وهكذا لا توجد حُجّة لقائل : إنى أُخذْتُ بذنب لم أعرف أنه ذنبٌ وقْتَ التكليف . لا حُجّة لقائل مثل هذا القول ؛ لأن الحق سبحانه يقول فى نفس الآية :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

والإنذار : تخويف بشرٍّ سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك

---

(١) الرسول هنا هو شعيب عليه السلام . فقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يأتِ أوانه كى تستعدّ لاستقباله.

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

يتضمن البشارة أيضاً ؛ ولكنه يركز ويؤكد من بعد ذلك فى قوله :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

وأقول : إن الإنذار هنا هو نعمة ؛ لأنه يُذكِّر الإنسان فلا يُقدم على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعةَ تُقدم للإنسان مغبة[1] العملَ السيء ؛ فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدى إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ.. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

وهذه هى القضية العقدية الأولى ، والتى تأتى فى قمّة كل القضايا ؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمر الهام فى هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ؛ لا أن تتعاند . ولا يرتقى بنيان ، ما إذا كنتَ أنت تبنى يوماً ليأتى غيرك فيهدم ما بنيتَ .

(١) الغبّ من كل شيء : عاقبته وآخرته . وكذلك المغبة . [المعجم الوجيز ـ مادة : غبب] .

ومهمة حركة الحياة أن نُؤدِّى مهمتنا كخلفاء لله فى الأرض ؛ بأن تتعاضدَ مواهبنا ، لا أن تتعارضَ ، فيتحرك المجتمع الإنسانى كله فى اتجاه واحد ؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فهو يحـدد لنا قوام الدين بعد تلقِّيـه من رسول الله ﷺ أنْ يُبلِّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امْرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها »[2] .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلِّغ ، وبذلك يحرم نفـسه من شرف التبعـية لرسول الله ﷺ، فَمنْ يعلم حكـماً من أحكام الدين ؛ فالمطلوب منـه هو تبليغه للغـير ؛ مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) نضر الله وجهه : نعَّمه . والنضرة : النِّعْمة والحُسْن والرونق . وقال الحسن المؤدِّب : ليس هذا من الحسن فى الوجـه ، إنما معناه : حـسَّن الله وجهه فى خُلُقه ، أى : جـاهه وقدره . [لسان العرب ـ مادة : نضر] .

(٢) أخرجـه أحمـد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمـذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سـننه (٢٣٢) والحميدى فى مـسنده (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مـسعود رضى الله عنه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[١] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلَّغكم وبَقِى على كل مسلم يعلم حُكْماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لِمَنْ لا يعرفه ؛ فقد ينتفع به أكثر منه ؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به .

ولذلك قال ﷺ : « رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع »[٢] .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخلط بين المعلومة التى تُقال لك ؛ وبين سلوك مَنْ قالها لك ، ولنسمع الشاعر الذى قال :

خُذْ عِلْمى ولاَ تركَنْ إلى عَمِلى وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للحطَبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغِ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا علْمَ لهم بها ؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

أى : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

---

(١) أمة وسطاً : أى : أمة فاضلة خيِّرة ، فالوسط خير الطرفين . [القاموس القويم ٢/٣٣٦] .

(٢) تمام الحديث : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى من لم يسمعها .. » الحديث ، وقد سبق تخريجه صفحة (٧٦٢٣) .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول ﷺ ، والرسول أمين في تبليغه ؛ لذلك لا يمكن أنْ يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآمر ؛ أو من عدم حكمة الآمر ، ولْنُدقِّق جيداً في قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرد تصوُّر الشراكة ؛ فلا أحدَ مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء ؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ؛ فلو كان له أجهزة لكانَ في ذاته يحتاجُ لأبعاضه ، وهذا لا يصحُّ ولا يمكن تخيُّله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هي القضية الأساسية التي يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هي جمع ، ومفرد « ألباب » هو « لُبّ » ، ولُبّ الشيء هو حقيقة جوهره ؛ لأن القشرةَ توجد لتحفظَ هذا اللُّب ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشيء الذي يُغلِّفه ليحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ؛ ويُحرِّكون عقولهم ليتذكروها دائماً ؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تَصْرِف الإنسان عن المنهج ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

أي : يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ؛ فلا إلهَ إلا هو ؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أنْ يشهَد له أيُّ كائن آخر ، وقال :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ..(١٨)﴾ [آل عمران]

وهذه شهادةُ الذات للذات ، ويُضيف سبحانه :

﴿وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

وشهادة الملائكة هى شهادة المُواجهة التى عايشوها ، وشهادة أُولى الألبابِ هى شهادة الاستدلال .

وشهد الحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد ﷺ أنه رسول ؛ وكذلك شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلنا جميعاً : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وهكذا فعلَى أُولى الألباب مهمة . أنْ يتذكَّروا ويُذكّروا بأنه إله واحد أحدٌ .

سورة الحجر